علاقة المذهب الأشعري بالتّصوف السني

د. عبد القادر بيطار
جامعة الحسن الأول، وجدة

تروم هذه المشاركة إبراز بعض الجوانب من الحياة الروحية في الإسلام، أو بعبارة أدق، بيان علاقة المذهب الأشعري بالتّصوف السني؛ هل هي علاقة تكامل أو تصادم؟ وهل توحيد الصّوفية المحرر للإنسان هو نفسه توحيد علماء العقيدة القائم على التجريد والنظر الفلسفي لتحقيق التنزيه المطلق للذات المقدسة؟ ثم ما هي حدود هذه العلاقة؟

ارتبط علم التّصوف بعلم التوحيد عند أئمة المذهب الأشعري ارتباطاً وثيقاً، كما يدل على ذلكم التكامل المعرفي الحاصل بين هاذين العلمين الشرعيين الشريفين؛ فإذا كان علم التوحيد يتضمن جملة من الحقائق الإيمانية الاعتقادية التجريدية المتعلقة بذات الله عز وجل، وبذوات رسله عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم؛ فإن التّصوف في عمقه يترجم تلك الحقائق الإيمانية التجريدية إلى عمل وسلوك حي، أو بعبارة أوضح: إن روح التوحيد هو التّصوف، فلا توحيد بدون تصوف ولا تصوف بدون توحيد، وقد قيل: «أول التّصوف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة من الله».[1]

إن نظام المعرفة الشرعية التي درج عليها أئمة المذهب الأشعري أنهم يذكرون التوحيد، ثم الفقه فالتّصوف، وهذا النسق المعرفي هو الذي استقر عليه المذهب الأشعري بالمغرب كما تدل عليه منظومة العلامة عبد الواحد بن عاشر.

لقد اتجه الأشاعرة إلى تصحيح الاعتقاد، ونصرة العقائد الدينية بأدلة عقلية، والرد على المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف؛ في حين اتجه الصّوفية إلى تقويم السلوك، والارتقاء بالذوق، والتربية على القيم الإسلامية السمحة، وهي بعض فروع الإيمان، أو ثمرات الاعتقاد الصحيح. ولذلك اعتبر علماء المغرب التّصوف علما تعرف به كيفية تصفية الباطن من كدراتِ النفس، أي عيوبها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش والبخل من أجل الوصول إلى تخلية

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، لبنان، 1971، (ج. 1، ص. 283).

القلب من غير الله وتحليته بذكره سبحانه وتعالى، كما يذكر العلامة سيدي أحمد المنجور.[2] كما نظر علماء المغرب إلى التّصوف نظرة علمية واقعية، حيث اعتبروه من جملة العلوم الإسلامية الملازمة للعمران، وأصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها.[3]

كما اعتبر العلامة المغربي أبو المواهب الحسن بن مسعود اليوسي (1102هـ) التّصوف فقها، بل عده أعم من الفقه، «لأن الفقيه يهتم بالأحكام الشرعية الظاهرة من حيث سقوط الحرج والذم وحصول الأجر وانضباط أمر المعاش، والصّوفي اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة، من حيث طلب الكمال، وإقامة العبودية لحق الربوبية».[4]

وتجدر الإشارة أن التّصوف أقسام واتجاهات، ولكنها ترجع عند التحقيق إلى ثلاثة أقسام:

1) **التّصوف السني**: وقد بدأ زهداً ثم تصوفاً وانتهى إلى الأخلاق، والذي وضعه في صورته الكاملة هو الإمام أبو حامد الغزالي. وهذا التّصوف الذي اعتنقته لمدرسة الأشعرية إنما هو تصوف في نطاق الكتاب والسنة.

2) **التّصوف السلفي**: ظهر هذا اللون من التّصوف عند الكرامية، ثم لدى الشيخ الهروي الأنصاري. وهذا اللون من التّصوف هو الذي تبناه ابن تيمية ثم ظهر كاملا متناسقا عند تلميذه ابن القيم.

3) **التّصوف الفلسفي**: وهو الذي امتزج بعلوم اليونان، وبحكمة المشارقة الأقدمين، وبتراث الهند .. وهذا القسم ظاهره أنه تصوف إسلامي، وباطنه غير إسلامي كما يستنتج الدكتور علي سامي النشار.[5]

أ - التّصوف روح التوحيد.

لقد ربط أئمة المذهب الأشعري بين ثلاثة علوم شرعية وهي: علم التوحيد، وعلم الفقه وعلم التّصوف، وهذه العلوم الشرعية الثلاثة مجتمعة تحقق مقاصدها في الخلق معاشا ومعادا. ولعل العلامة عبد الكريم القشيري المتكلم الأشعري (465هـ) - الذي وفق في الجمع بين الشريعة والحقيقة- كان صارما في تأسيس التّصوف على قواعد عقدية شرعية أشعرية، فقد كتب -رحمه الله- فصلا بعنوان:

---

2 - محمد بن أحمد ميارة، الدر الثمين والمورد المعين، (ص. 510).

3 - ابن خلدون، المقدمة، مصر، 2004، (ج. 3، ص. 989).

4 - القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم، (ص. 185).

5 - على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مصر، (ج. 3، ص. 21).

أصول التوحيد عند الصّوفيين، قال فيه: «اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القِدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد. ولذلك قال سيد هذه الطريقة أبو القاسم الجنيد (297هـ) -رحمه الله-: «التوحيد إفراد القدم من الحدوث»».[6]

كما قد وضع الإمام أبو القاسم الجنيد قاعدة ذهبية في مجال الاعتقاد السني؛ حيث قال: «اعلم أن أول عبادة الله عز وجل معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والحيث والأين».[7]

و المرجع في ذلك كله القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ يقول الإمام الجنيد -قدس الله روحه-: «الطريق إلى الله مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ (..) علمنا مضبوط بالكتّاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به».[8]

لقد عمل الصّوفية الأشاعرة-أو الأشاعرة الصّوفية -على سلامة المعتقد وحفظ نصوصه الشرعية من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ولذلك رأينا الإمام أبا المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (973 هـ) يصرح في مقدمة كتّابه «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» بضرورة الإفصاح عن أمر العقيدة، فيقول: « اعلم رحمك الله يا أخي، أنه ينبغي لكل مؤمن أن يصرح بعقيدته وينادي بها على رؤوس الأشهاد، فإن كانت صحيحة شهدوا له بها عند الله تعالى، وإن كانت غير ذلك بينوا له فسادها ليتوب منها».[9]

II - الصّوفية من جملة أهل السنة عند الأشاعرة.

لقد أشار الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي (429هـ) في كتّاب «الفرق بين الفرق» إلى أصناف أهل السنة الذين أحاطوا بعلم التوحيد على الطريقة الأشعرية، وجعلهم ثمانية أصناف.

6 - القشيري، الرسالة، (ص. 41).
7 - رسائل الجنيد، تحقيق د. جمال رجب سيدبي، دمشق، 2005، (ص. 130).
8 - رسائل الجنيد، (ص. 225)، ميارة الكبير، (ص. 22).
9 - عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، بيروت، 2017، (ج. 1، ص. 5).

ومن جملتهم الزهاد الصّوفية؛ «الذين أبصروا فأقصروا، واختبروا فاعتبروا، ورضوا بالمقدور، وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسؤول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الإعداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث، دون من اشترى لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء، ولا يتركونه حياء، دينهم التوحيد، ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه، والتسلي لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ » [الحديد:21].[10]

كما أشار الإمام البغدادي أيضا في كتابه «أصول الدين» إلى ترتيب أئمة التّصوف والإرشاد؛ فقال: «وقد اشتمل كتاب تاريخ التّصوف لأبي عبد الرحمن السلمي (412هـ) على زهاء ألف شيخ من الصّوفية ما فيهم واحد من أهل الأهواء، بل كلهم من أهل السنة سوى ثلاثة (..)».[11]

ومن مفاخر الأشاعرة -أهل السنة والجماعة-أنه لا خصلة من الخصال التي تعد في المفاخر لأهل الإسلام من المعارف والعلوم وأنواع الاجتهادات إلا ولهم فيها القِدْحُ المعلى والسهم الأوفر.

فمن جملة العلوم التي اختص بها أئمة المذهب الأشعري علم التّصوف والإشارات، وما لهم فيه من الدقائق والحقائق، بحيث لم يكن قط لأحد من أهل البدع فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة... كما أنه لم يوجد قط من ينسب منهم إلى بدع القدرية والروافض والخوارج، وكيف يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم يدور على التسليم والتفويض والتبرؤ من النفس، والتوحيد بالخلق والمشيئة، وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد».[12]

كما اعتبر الإمام الشعراني الأشاعرة من جملة أهل السنة والجماعة، قال رحمه الله: « واعلم يا أخي أن المراد بأهل السنة والجماعة في عرف الناس اليوم الشيخُ أبو الحسن الأشعري ومن سبقه بالزمان كالشيخ أبي منصور الماتريدي وغيره رضي الله عنهم (..) ولذلك صار الناس يقولون: فلان عقيدته صحيحة أشعرية، وليس مرادهم في صحة عقيدة غير الأشعري مطلقا».[13]

10 - عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، بيروت، 1980، (ص. 352).

11 - عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، (ص. 325). وقد طبع كتاب السلمي بعنوان: طبقات الصّوفية.

12 - أبو المظفر الأسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين، (ص. 425).

13 - الشّعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج. 1، ص. 4).

وقد قيل عن التّصوف:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه	ليس التفاخر بالعلوم الظاهـرة
مـن لـم يهـذب علمه أخلاقـه	لم ينتفـع بعلومه في الآخـرة[14]

III - امتزاج العقيدة الأشعرية بالتّصوف.

لقد ارتبطت العقيدة الأشعرية بالتّصوف السني مع بداية تأسيس المذهب الشعري؛ ولعل أبرز شخصية كان لها تأثير كبير في الحياة الروحية في الإسلام هو العلامة أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (243هـ) الإمام العارف الناطق بالحكمة.

يقول مؤرخ المدرسة الأشعرية العلامة أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (479هـ) وهو يتحدث عن ظروف نشأة المذهب الأشعري: «حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابي، وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي، وهؤلاء كانوا من جملة السلف، إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية، وبراهين أصولية، وصنف بعضهم ودرس بعض، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه مناظرة في مسألة من مسائل الصلاح والأصلح فتخاصما، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة فأيد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهبا لأهل السنة والجماعة».[15]

وقد أشار ابن خلدون إلى منهج المحاسبي في التأليف الصّوفي؛ حيث ركز على بيان أحكام الورع ومحاسبة النفس، فألف كتابه القيم «الرعاية لحقوق الله» الذي يقول في مقدمته: «وأما ما سألت عنه من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها، فإنك سألت عن أمر عظيم، أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين، وهو الأمر الذي تولى الله عليه أنبياءه وأحباءه، لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته».[16]

لقد أعلن المحاسبي أنه: «لا يُرضى من العلم والعمل إلا ما ثبت باليقين أصله، وعلا بالصدق فرعه، وأثمر بالورع نباته، وقام بالإشفاق برهانه، وحُجب بالخشية أستاره، فلا تَرض من نفسك بالتواني، فإنه لا عذر لأحد في التفريط، ولا لأحد عن الله غنى».[17]

---

14 - حاشية محمد الطالب بن الحاج على ميارة، (ج.1، ص. 15).

15 - الشهرستاني، الملل والنحل، (ج.1، ص. 93).

16 - المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، (ص. 32).

17 - المحاسبي، رسالة المسترشدين، (ص. 166).

وقد امتزج المذهب الأشعري بالتّصوف السني على يد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (505هـ)؛ فقد عمل حجة الإسلام على إقامة أمور العقيدة على أسس شرعية، كما اعتبر سعادة الإنسان في الجمع بين العلم والعمل.

كما وضع الإمام الغزالي علامتين لمعرفة السائرين إلى الله تعالى، خصوصا وأن «السالك سبيل الله قليل، والمدعي كثير»، كما يقول الإمام الغزالي.

العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعال السائر إلى الله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته.

العلامة الثانية: أن يكون السائر إلى الله تعالى حاضر القلب مع الله في كل حال، حضورا ضروريا غير متكلف.[18]

VI - التّصوف وسيلة لاستكمال ما عز إدراكه في علم الكلام

يستنتج الشيخ محمد الغزالي في كتابه «عقيدة المسلم» أن الطابع النظري لعلم الكلام دفع بالمشتغلين بهذا العلم إلى النزوع إلى التّصوف من أجل «استكمال ما عز عليهم إدراكه في علم الكلام».[19] وهو لا ينكر على الصّوفية ما هم عليه لكنه يرى أن «التّصوف ميدان كثير المزالق، وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم».

ومن فضائل التّصوف عند الشيخ محمد الغزالي «أنه أنعش عاطفة الحب الإلهي، وربط قلوب الناس ربطا رقيقا ببديع السماوات والأرض»، ولكنه يبقى في رأيه محل توجس. وهنا يختلط التّصوف السني بالتّصوف الفلسفي عند الشيخ محمد الغزالي، لأن ما يسميه الشيخ بعاطفة الحب الإلهي يحيل على فلسفة الإشراق[20] التي تأثر بها بعض الصّوفية الإسلاميين كشهاب الدين السهروردي.[21]

---

18 - أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، (ص. 399).

19 - محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (ص. 6).

20- الإشراق في اصطلاح الفلاسفة هو: «ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها على الأنفس». جميل صليبا، المعجم الفلسفي (ج. 11، ص. 93). وعرف كذلك بكونه: «حدوث الإلهامات من الله للصوفي بطريق مباشر، أو على باطنه أو قلبه». شمس الدين محمد شهرورزي ، مقدمة شرح حكمة الإشراق، (ص. 94).

21- أنظر تأليف الدكتور محمد علي أبو ريان، أصول فلسفة الإشراق عند شهاب الدين السهروردي، طبعة دار النهضة العربية، بيروت. وأنظر أيضا: شمس الدين محمد شهرورزي، شرح حكمة الإشراق، مكتبة الثقافة الدينية، ط. 1، مصر 2012.

ثم إن مسألة الحب الإلهي التي نحن بصدد الحديث عنها لا يكاد يفهم منها شيئا معقولا، فهي عند بعضهم: «الميل الدائم بالقلب الهائم، وقيل: إيثار المحبوب على جميع المصحوب، وقيل: محو المحبوب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته (..)»[22]. وهذه العبارات كلها لا تحيل على معنى شرعي واضح الدلالة، علما أن حب الله عز وجل يعني طاعته واتباع شرعه.

ونشير في هذه السياق إلى ما ذكره أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني قال: «سمعت بعض الجهال يقول: نحب الله ويحبني الله، فقلت له: كما يحب الناس بعضهم بعضا، قال: نعم، فقلت له: أنت رجل جاهل، وإنما معنى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54]:« يريد ثوابهم وإكرامهم ويريدون طاعته وعبادته، لأن البارئ تعالى محال أن يميل أو يمال إليه، تعالى عن ذلك»[23].

لقد لاحظ الشيخ محمد الغزالي في نقده لعلم الكلام أن هذا العلم يتسم بعدم الفعالية والتأثير في النفوس، ومن ثم نزع العامة نحو التّصوف لاستكمال النقص الحاصل في هذا العلم، وهنا نتساءل: كيف جاز للشيخ محمد الغزالي أن يحشر العامة في علم نظري بحت، هو علم الكلام، وعلم التّصوف الذي يتجاوز حدود العقل المجرد؟

إن النزوع إلى التّصوف بدون تحصيل العقائد الإيمانية تحصيلاً صحيحاً، انطلاقاً من أدلتها اليقينية التي هي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والإجماع، يكون خطراً على المعتقد.

ومن أجل تحصين الصّوفية من الزيغ والضلال أو تأسيس التّصوف على قواعد شرعية مسددة لابد من تحصيل العقائد الإيمانية على نحو صحيح، أو رد التّصوف إلى علم التوحيد في صورته السنية كما رأينا عند العلامة عبد الكريم القشيري في رسالته.[24]

كما حاول الشعراني (973هـ) التوفيق بين طريقة الصّوفية وطريقة المتكلمين في بيان العقائد الإيمانية، فقال: «إن الخلق كلهم قسمان: إما أهل نظر واستدلال، وإما أهل كشف وعيان، وقد ألف كل من الطائفتين كتبا لأهل دائرته، فربما ظن من لا غرض له في الشريعة أن كلام إحدى الدائرتين مخالف للأخرى، فقصدت في هذا الكتاب بيان وجه الجمع بينهما ليتأيد كلام أهل كل دائرة بالأخرى».[25]

22 - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية: نظرات في التّصوف والكرامات، (ص. 194).

23 - محمد بن خليل السكوني الإشبيلي، أربعون مسألة في أصول الدين، تحقيق ذ.يوسف أحنانا، بيروت، 1993، (ص. 71).

24 - الرسالة القشيرية، ص:41

25 - الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، (ص. 3).

خاتمة

صفوة القول إن المذهب الأشعري قد ارتبط عبر تاريخه بالتّصوف السني ارتباط الفرع بالأصل، والإيمان بالعمل؛ فالتّصوف السني يساعد السائرين إلى الله تعالى على تذوق العقائد الإيمانية وجعلها تؤثر في السلوك، وعلم التوحيد الذي وضع أسسه أئمة المذهب الأشعري يضبط المعرفة الصّوفية ويحفظها من الوقوع في بعض التجاوزات والانحرافات العقدية، لأن التّصوف كما قال الشريف الجرجاني في حده: «الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال».[26]

إن ما يشهده العالم اليوم من أزمات نفسية، وانقباضات روحية يقتضي من المشتغلين بالتراث الروحي التعريف بالتّصوف السني الذي يسعى إلى إسعاد البشرية قاطبة، لما يشتمل عليه من قيم إنسانية عالية، والذي يجعل من السائر إلى الله تعالى مواطنا صالحا فاضلا متخلقا لا يؤذي أحدا من خلق الله، ولا يكون منه شر أبدا، بل ينفع الناس جميعا باعتبارهم عيال الله، لقول نبينا محمد ﷺ: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» وقوله ﷺ أيضا: «خير الناس أنفعهم للناس».

كما أن علم التّصوف لا يمكن بحال فصله عن علم التوحيد، لأن معرفة الله عز وجل وإفراده سبحانه وتعالى بالوحدانية في الذات والصفات والأفعال لا تحقق خارج علم التوحيد.

لقد أدرك الصّوفية عجز العقل المجرد عن إدراك حقيقة الذات المقدسة فاشتغلوا بالذكر والمجاهدة من أجل التعرف على الله تعالى من خلال صفات الجلال والجمال؛ لأن مبدأ الكلام عند الصّوفية التوحيد الموجب للخشية كما يقول العلامة سيدي أحمد زروق.[27]

كما تظهر تلك العلاقة الوثيقة والتكامل المعرفي بين الفقه بمفهومه الواسع، وبين التّصوف من خلال قولهم: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق». قال العلامة سيدي أحمد زروق في تعليقه على هذه العبارة: «قلت: تزندق الأول برفضه الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني بخلوه عن صدق النية فيما هو به والعمل به، وتحقق الثالث لقيامه بكل محله».[28]

---

26 - الجرجاني، التعريفات، (ص. 26).

27 - أحمد زروق، اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصّوفية، تحقيق محمد عبد القادر نصار، مصر 2014، (ص. 100).

28 - ()احمد زروق، اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصّوفية، (ص. 102).